الحرب البونيقية الأولى

(264 ق.م-241 ق.م.)

تعتبر الحروب البونيقية من أشهر حروب العصور القديمة، قد دارت رحاها على الغلبة العسكرية والتجارية في منطقة غرب البحر المتوسط والشمال الإفريقي، بين قوتين إقليميتين عظميين، قوة تجارية راسخة ممثلة في قرطاجة وحضارتها، وقوة عسكرية ناشئة ممثلة في روما وكنفدراليتها. وقد مرت هذه الحرب بثلاثة مراحل: حرب أولى (264-241 ق.م.)، وحرب ثانية (218-201 ق.م.)، وحرب ثالثة (149-146 ق.م.)، تخللتها فترات سلم نسبي وحروب جانبية.

- **الحرب البونيقية الأولى** (264 ق.م-241 ق.م.)

كانت منطقة المتوسط الغربي متجاذبة بين عدد من القوى والممالك المنتسبة لحضارات مختلفة؛ فكانت قرطاجة في الشمال الإفريقي، وأكثر مناطق صقلية وإبيريا وسردنيا وكورسكة، وكانت روما في معظم شبه الجزيرة الإيطالية، وكانت بعض الممالك الصغيرة ذات الميراث الإغريقي في بعض المدن بصقلية كسرقوسة، ومدن جنوب إيطاليا كتارنت؛ وتجاذبت تلك الممالك الصغيرة صراعا طويلا مع قرطاجة ثم روما.

وحصل أهم متغير جيوستراتيجي في المنطقة بتمكن الرومان من إتمام توحيد شبه الجزيرة الإيطالية، بعد دخولهم مدينة "تارنت" (272 أو 275 ق.م.)، وانتصارهم على ملكها "بيريوس الإغريقي" (280 ق.م.)؛ مما جعلها تتطلع لبقية أعدائها بل وحلفائها أيضا في طريق توسعها المستمر.

بدأ التوتر بين كل من قرطاجة وروما، بعد انتهاء الحلف بينهما ضد مملكة تارنت، فكان أول ذلك باتهام روما لقرطاجة بخرق معاهد التحالف بينهما بنزولها بمنطقة سردنيا.

ثم احتدم الصراع بينهما على صقلية؛ فقد كانت روما ترى في صقلية امتدادا جغرافيا لشبه الجزيرة الإيطالية، وأن امتلاكها يعد توحيدا لها (بولبيوس)؛ في حين كانت قرطاجة طامعة بإنهاء بسط نفوذها على شرقيها؛ فتعارضت المصالح والمطامع.

وقد كان الإغريقي "أغاتوكليس" والسرقوسيون قد هاجموا مدنا في الساحل الإيطالي أثناء حروبهم، ولم تكن قرطاجة بعيدة عن عمل عملهم، إذا ما تمكنت في صقلية، وبسطت سيادتها عليها، وعلى مضيق "مسينة" الحيوي (بولبيوس).

أما السبب المباشر للحرب؛ فقد كان الصراع الأهلي بمدينة "مسينة" شمال شرقي صقلية، وكانت تحت سيطرة المرتزقة "المامرتيون"، تتعرض لهجمات ملك سرقوسة "هيرون". وكان بها حزبين حزب طلب الدعم من قرطاجة فبعثت لها حامية، وحزب إيطالي (المامرتيون) استنجد بروما سنة 268 ق.م.، وقبل بعد السيناتو الروماني دخولهم في الكنفدرالية الإيطالية (265 ق.م.)، ومن هنا كان تصدع الأحوال مع قرطاجة قضية أيام، لأهمية مضيق مسينة، إذ كان أهم ممر لتجارتها المتوسطية.

وتبدأ الحرب وتدوم طويلا، وقد مرت بثلاثة مراحل: أولى (264-258 ق.م.) ميزتها أولى الانتصارات الرومانية في البر والبحر، كان ذروتها معركة "تندريس" (258 ق.م.). وثانية (258-244 ق.م.) وميزها التفوق القرطاجي ويمثله انتصار "دريبانوم" (249 ق.م.). وثالثة (244-241 ق.م.) أعلنت فيه نهاية الحرب واستسلام قرطاجة.

لقد طالت الحرب سنوات دون حسم، وظهرت علامات الضجر من كلا الطرفين، خاصة القرطاجيون، وقررت روما حسمها بكل الوسائل، وأسست أسطولا جديدا. وكانت قرطاجة سنة 241 ق.م. قد بعثت لقائدها "هملكار" بصقلية مددا في أسطول من أربعمائة سفينة، محمل أكثرها بالميرة، كآخر محاولة منها لتجنب الهزيمة البرية. ورغم محاولة هذا الأسطول توقي مواجهة الأسطول الروماني إلا أنه اصطدم به في معركة "إيغات" (*Aegates*) التي حسمت نصر الرومان، حيث أغرقت خمسون سفينة قرطاجية وأسرت ستون أخرى، وتفرقت البقية، وأصبحت القدرة العسكرية القرطاجية بصقلية في عجز تام.

- **الاستسلام والصلح**:

وأصبح الجنرال هملكار عاجزا عن توفير أجور المرتزقة في جيشه، خاصة وأنه شرط عليه عند توليه قيادته ألا يعتمد في دفعها على خزينة الدولة، بل من مغانم حروبه، فاضطره الأمر بعد الهزيمة إلى الدخول في مفاوضات الصلح مع الرومان، وكان قد فُوض بذلك من قبل قرطاجة؛ تلك المفاوضات التي أفضت إلى اتفاق مجحف كان من أهم بنوده:

- التخلي النهائي لقرطاجة على ممتلكاتها بصقلية.
- عدم التعرض لحليف روما "هيرون" ملك سرقوسة.
- دفع ضريبة حرب، قيل كان قدرها خمسة آلاف "طالنت"، وقيل ثلاثة آلاف ومائتين؛ يدفع جزء منها (ألف) في الحال، والبقية (عشرة آلاف) في مدة عشر سنين.
- إرجاع جميع أسرى الرومان وحلفائهم دون دفع فدية، مع دفع قرطاجة فدية أسراها.
- وقيل أنه في التصويت على المعاهدة في مجلس الشعب (*Comices*) رُفضت، ووضع مكانها معاهد أكثر قسوة، نتج عنها زيادة ضريبة الحرب، وتقليل مدة استحقاقها، وتخلي قرطاجة عن الجزر الإيوليانية بين صقلية وإيطاليا.
- وفي مقابل كل هذا تعترف روما بحدود قرطاجة المرسومة.

- **نتائج الحرب**:

لقد أفضت الحرب البونية الأولى على نتائج جيوسياسية واقتصادية مهمة؛ فقد أظهرت القوة الكبرى التي استجمعتها روما خلال نصف قرن من الزمن، إذ أصبحت سيدة على إيطاليا، وكذا على صقلية، التي أصبحت أول مقاطعة رومانية خارج شبه الجزيرة. كما أصبحت روما سيدة على مساحات واسعة من المتوسط الغربي، وما يترتب على هذا من تحكمها في الحركة التجارية للمنطقة، التي هي شريان العظمة القرطاجية. وجنت روما أموالا كبيرة من خلال ما كسبته أثناء الهزيمة القرطاجية، وبعد المعاهدة المجحفة.

أما قرطاجة فقد أضاعت نسبيا هيبتها البحرية، وما ترتب على ذلك من نتائج اقتصادية. وانهارت قدرتها المالية القريبة، بما فقدته من أراضي ونفقة على الحرب الطويلة، وما وضع عليها من ضريبة، والذي سيسبب لها حربا ضروسا مع مرتزقتها. وضعفت هيبتها وسطوتها التي كانت تخوف بها بربر بلاد المغرب. يضاف إلى ذلك الخسائر البشرية لكلا الطرفين، والتي قدرها بولبيوس بمائتي ألف قتيل من الجند فقط؛ والخراب الكبير الذي لحق بساحة الحرب صقلية.

- **أسباب الهزيمة القرطاجية**:

لم تكن هزيمة قرطاجة في هذه الحرب ناتجة عن قوة روما والرجل الروماني كما حاول التاريخيون اللاتين إظهاره، بل كانت هناك أسباب عميقة راجعة لطبيعة السياسة القرطاجية وفلسفتها، وفي الذات القرطاجية نفسها، وفي أمور أخرى عارضة، ونجمل ذلك فيما يلي:

1) فقرطاجة لم تستعمل أسطولها البحري القوي بكفاءة لحماية صقلية من أعدائها، فرغم تفوقها بحرا لم تهاجم المدن الرومانية الساحلية، ولم تمنع الرومان من إنشاء أسطولهم البحري.
2) كما لم تدعم أسطولها بعدما أسس خصومها أسطولهم؛ ففقدت بذلك هيمتنها.
3) ولم ترد على الحملة الرومانية على صقلية في بدايتها بالقوة والحزم اللازم، بل بقيت مترددة مكثرة الترقب وترك المواجهة؛ ثم لما حاولت حسم الأمر بالقوة جاءت قوتها متقطعة في الزمن.
4) كما لم تغتنم فرصة انتصاراتها البحرية الكبرى (دريبانوم) لحسم الحرب، لضعف الروح الهجومية عندها، بسبب أن سياستها الحربية كانت موجهة أكثر من اللازم نحو حماية مصالحها التجارية.
5) وواجهت صعوبات جمة في جمع مال الحرب، مع تضييعها له بسرعة، وقد طلبت لذلك سلفة من ملك مصر دون جدوى.
6) ثم إن طول الحرب كانت أضر عليها من غريمتها، بسبب أن أصول أموالها من التجارة البحرية دون غريمتها، وكانت التجارة المتوسطية أكثر شيء تضررا من الحرب.
7) وكان حذرها من مرتزقة جيشها مبررا، لقلة انضباطهم، ولم يكن مبررا حذرها من قادتها العسكريين، الذين عوقبوا بعد هزائمهم كخونة وصلب بعضهم.
8) وهناك أسباب راجعة للجانب الروماني نفسه، مما لم يكن من أخطاء قرطاجة، بل من أقدار التاريخ.

وخلاصة القول أن قرطاجة خاضت حربا عسكرية بحرية وبرية بسياسة أنتجتها عقلية تجارية، فلسفتها الكبرى الخروج بأقل ضرر خير من فقد كل شيء، فكان ذلك سببا في هزيمتها وتهالك جيوشها.

اهـ.